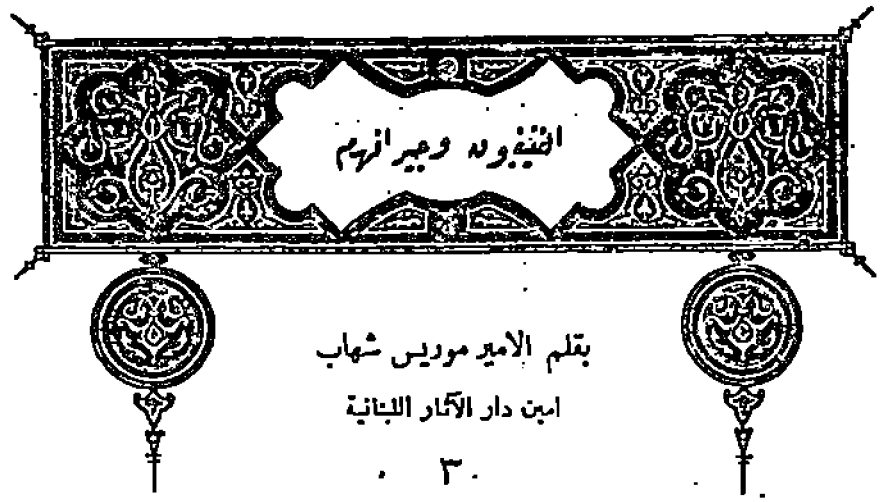

بقلم الامير موريس شهاب
امين دار الآثار اللبنانية

٣٠

من آثار بيبلوس (تابع)

كان الفرعون امنحتيت الثالث معاصراً لملك بيبلوس ابي شيمو ، فاهدى اليه إناء ثميناً من الاوبسيديين[1] مرصعاً بالذهب ، أنيق المظهر ، حُفر عليه خاتم الفرعون (الرسم ٩) . وهذا الاناء ادق شغلاً واكبر من سائر الآنية من نوعه التي وجدت في قبور امبرات دهشور ، وحُفظت في متحف القاهرة . اما مصدر مادّة الاوبسيديين المصنوعة منها هذه الآنية فهو دون شك بلاد النوبة التي اكتسحها فراعنة الدولة الثانية عشرة ، قُبيل ذاك الزمن .

بقي علينا ان نعرف اسم الملك المدفون في هذا الضريح الفخم . فلندخل في رواق قديم حُفر في الجلمود ليصل القبر المذكور بقبر آخر على شكله . ولننقب فلا نشاهد اثراً لناووس حجري ، بل جلّ ما نقف عليه بعض رقائق من الميناً سقطت عن اطراف تابوت من الخشب فعل به الزمان فتهافت ، ثم نجد عقداً من الذهب نقش عليه ، كما نقش على العقد الموجود في القبر الاول ، باز باسط الجناحين ؛ نجد ايضاً حليين من الذهب صوّرت عليهما تماثيل مختلفة بالحجارة الكريمة والميناً ، فشهدت بما لصانعها من حذق وبراعة في فنه ، اذ آلف بين الاحجار المتعدّدة الالوان من جَمشت ، وياقوت ، ونجّادي ، ولازَوَرْد (الرسم ٢) . ونرى

١) الاوبسيديين : مادّة معدنية بركانية الاصل تظهر كانها زجاج طبيعي ، وهي نادرة الوجود

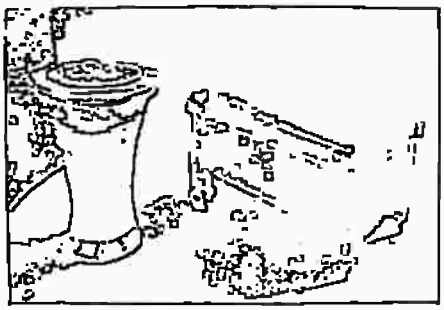

الرسم ٣ . الرسم ١
علبة الاوبيديين اناء الاوبيديين
من آثار بيبلوس (متحف بيروت)

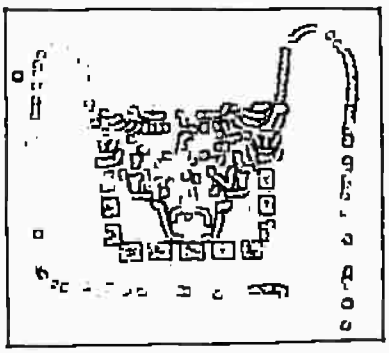

الرسم ٤
عقد من ذهب
من آثار بيبلوس (متحف بيروت)

الرسم ٢
حلي من الذهب مرصع بالجواهر الكريمة
(من آثار بيبلوس – متحف بيروت)

على احد هذين الحليين اسم الملك إيب شيمو أبي مقرّنًا بالصور الهيروغليفية المذهبة داخل خاتم مذهب ايضاً.

وفي الضريح نفسه ظهر الى جانب مقرّ الجثة الملكية صولجان من البرونز بقبضة من الذهب، صوّر عليه من الجهتين افعى من الذهب، وقد حُفر في جسم الافعى من جهة اسم الملك المذكور إيب شيمو أبي، ومن الجهة الثانية اسم والده ابي شيمو، كل ذلك بالحروف الهيروغليفية.

فاين قُبر هذا الوالد؟ وهل يجب علينا ان نفتش عن ضريحه بعيداً عن ذاك المكان؟ أوَليس الرواق الواصل بين القبرين معناه ان الابن البارّ لما بنى ضريحه اراد ان يشرك والده ابي شيمو بما سيقدّم لروحه من التقدمات ومظاهر الاحترام؛ فجعل مقرّه الاخير قريباً من مقرّ ابيه؟ هذا ما نراه...

ويؤيد اكتشاف علبة صغيرة من الاوبسيديين المرصّع بالذهب على طريقة الاناء المذكور اعلاه، حُفر عليها اسم الفرعون امنحوتب الرابع، خليفة امنحوتب الثالث الذي اهدى ذاك الاناء المذكور. اما هذه العلبة فهيئتها معروفة في مصر لكثرة ما صُورت في النقوش والرسوم. على انها اكتشفت في بيبلوس قطعة مستقلة، وهو الاكتشاف الاول من نوعه. وعليه فان هذه العلبة في هيئتها ومادتها تكوّن احدى مفاخر متحفنا الوطني (الرسم ٣).

اما القبر الثالث فظهر فيه صولجان من البرونز، وعقد من الذهب عليه اليازي المعروف باسطاً جناحيه، على انه ادقّ صنعاً منه في القبرين السابقين (الرسم ٤)، واسطوانة صغيرة مموّهة بالذهب، وبعض قطع خزفية ثم عدة ادوات صغيرة من البرونز تشبه ما اخرج من الضريحين الآخرين.

استقلال بيبلوس

ان ظهور اسماء ملوك بيبلوس على الآثار المختلفة من السنة ٢٠٠٠ ق.م.، مع ذكر تقدمة الهدايا الفرعونية لهؤلاء الملوك ولا للهيكل، يدلّ على انه، بعد النازلة الكبرى التي ذهبت بالامبراطورية المصرية القديمة، توصلت مملكة بيبلوس الى ان تستقلّ نوعاً عن السلطة المصرية، وظهر فيها أسرة مالكة وطنية.

وفضلاً عن ذلك فـان العلاقات الودية التي ربطت القطر المصري ببيلوس في هذا العهد تظهر كلها موافقة للطريقة السياسية التي عرف بها فراعنة الدولة الثانيـة عشرة من انصرافهم عن الاكتساحات الخارجية الى الاهتمام ، كل الاهتمام ، بالسياسة الداخلية لتقرير الامن وقمع الثورات الوطنية . على ان هذا لم يمنعهم ان يحفظوا مع الشعوب الاسيوية علاقات ودية لم تكن لتقل متانة عن علاقات التابع بمتبوعه ، بل بالعكس .

ومما عزز هذه العلاقات الودية تأثير المدنية المصرية في شعوب الشرق كافة ، وكانت تلك المدنية قـد وصلت في هذا العصر الى ارقى درجات ازدهارها ، فبلغت اقصى مناطق انتشارها ، حتى ان احد امراء مصر اللاجئين الى فينيقية ، يذكر انه كثيراً ما كان يسمع اهالي هذه البلاد يتكلمون لغته المصرية . ومهما يكن من صحة هذا القول فان لدينا البراهين القاطعة على ان الخط الهيروغليفي ، على الاقل ، كان يستعمل كثيراً في بلاط بيلوس .

عصور الاضطراب في مصر ، ومصير بيلوس

على ان عصر الازدهار هذا لم يكن في بيلوس اطول منه في مصر . فلم يتجاوز في البلدين الثلاثة الى الاربعة قرون .

وفعلاً فانه في اواخر القرن السابع عشر ق. م. هجمت على مصر الشعوب الاسيوية المعروفة باسم الرعاة او الهيكسوس فاكتسحتها . وفي هذا العصر ، صار يوسف بن يعقوب وزيراً لاحد الفراعنة من هؤلاء الهيكسوس . وكانت سياسة هؤلاء الملوك ان يسهلوا انتقال الاسيويين لوادي النيل واقامتهم في تلك الاراضي الخصبة ، ليضمنوا العنصر المصري القحّ الـذي لم يكونوا ليبيتوا بسهولة وطنيته الحية . ولم يكن وصول اخوة يوسف الى مصر سوى مظهر من مظاهر هذه السياسة .

اما اصل هؤلاء الملوك الجدد فكان مشتركاً بين مشهوري الشعوب الاسيوية ، فكان منهم الكنعانيون والآراميون وحتى الحثيون .

على ان ما يهمنا خصوصاً هو مصير بيلوس في هذه العصور المضطربة . فهل

اصبح اهلها من حلفاء الاسيويين المكتسحين ؟ ام ظلوا على الامانة للمصريين المضطهدين ؟ ليس لدينا من الآثار ما يدلّ على شيء من ذلك.

ومهما يكن من الامر فاننا نعلم انه عندما انتصر فراعنة الدولتين السابعة عشرة والثامنة عشرة على ملوك الهيكسوس ، وطردوا الاسيويين من وادي النيل ، واكتسحوا البلاد السورية حتى نواحي الفرات ، كانت بيبلوس تحارب الى جنبهم ، فاعارتهم مراكبها ، واعدت لهم مرفأها يتزل فيه المصريون الذخائر والاسلحة المعدّة لجيوشهم الغازية .

ومن ثم عادت العلاقات الودية بين بيبلوس ومصر الى وثوقها في العصور السالفة . حتى انه بينا كانت جميع بلاد سورية الشمالية ، واكثر مدن فنيقية تتحد ظاهرًا او خفيةً مع الحثيين ، كان ملك بيبلوس ريب عدّي يكتب الى فرعون مصر :

« على اقدام مولاي انطرح سبع مرات وسبع مرات ... ليسرع مولاي بارسال الجيوش .. وان لم يسرع مولاي الملك بارسال الجيوش اصبحنا من الاموات وسقطت مدينة جبَل في ايدي الاعداء . . . وان الاعداء يقولون ان اخذنا مدينة جبَل اصبحنا اقوياء ..»

اما الفرعون امينوفيس الرابع ، حو توت عنخ امون ، فقد اصمّ اذنيه عن نداء ريب عدّي المملوء بعواطف الرعب من الحثيين ، والاخلاص الاعمى للمصريين. وما ذاك الّا لان امينوفيس كان منهمكاً بتأسيس عبادة الاله - الشمس ، اله العالم الوحيد ، انهماكاً ولّد الاضطراب في داخل مملكته ، واضاع من يده جميع المستعمرات المصرية في الخارج ؛ فاستولى الحثيّون على جميع المدن السورية والفنيقية.

وما رقي توت عنخ أمون العرش حتى اعاد الى مصر عبادتها القديمة ووطد الامان في انحاء مملكته . وقد تبعه في سياسته هذه سيتي الاول ثم رعمسيس الثاني الذي ولي الملك من سنة ١٣٠٠ الى ١٢٣٤ ق. م. ، ثم تجاوزاه ، ولاسيما هذا الاخير ، الى اعادة المستعمرات المصرية القديمة. فابحر رعمسيس الثاني دائرًا حول الشطوط ، ونزل في نهر الكلب حيث ترك على صخوره الاثر المعروف محفورًا باسمه . وهذا الاثر اقدم الآثار الموجودة من نوعه في نهر الكلب.

اما في بيبلوس فاهتم رعمسيس الثاني باعادة بناء الهيكل . وقد كشفت الحفريات ، السنة الماضية ، عن باب هذا الهيكل . ولنا الرجاء ان نعرضه قريباً في متحفنا الوطني ، حيث نُقلت اقسامه . ويظهر على جهته رعمسيس الثاني ممثلاً تحت خاتمه .

اقدم كتابة بالحروف الابجدية

والى هذا العصر يرقى أثر ذو اهمية كونية . وذلك ان السيد مونتيه ، بينما كان يتابع حفرياته ، كشف بئراً تتصل بضريح خامس وقد حُفر على احدى جهاتها : « اعلم أن هلاكك تحت هذا المكان ! » ولكن على الرغم من هذا التهديد ، فُتشت البئر ، فوجد في قعرها بعض قطع لاناء من حجر الشطوط نُقش عليها اسم رعمسيس الثاني . ووجد ايضاً قطعة عاج صُوّر فيها ثور يعارك اسداً وتنيناً .

فتبادر الى الذهن انه قد يكون هذا الضريح للملك ياصز الفرعون المذكور . وما هو ان فتح القبر حتى ظهر فيه ثلاثة تواويس غطّت احدها النقوش والرسوم المختلفة .

اما هذه النقوش فتمثل اهبا الملك أخيرام وقد جلس على عرش تحفّ به تماثيل ابي الهول ، وبسطت امامه مائدة عليها انواع الطعام المختلفة . ووقف بين يديه بالتضاع ابنه رافعاً بيده المذبّة . ووراءه سلسلة من كبار الامراء يرفعون ايديهم عربوناً لخضوعهم ويقدّمون ما اتوا به من الهدايا . ومُثل على جهتي التاووس الصُغريين ثماني نوادب شققن الجيوب واخذن بنوع من الرقص المأتمي .

مُثل الملك بحجمه الطبيعي يحيط به اسدان جعل رأسهما الكبيران ممسكين لقطاء التاووس . واستند التاووس نفسه الى اربعة من الاسود ايضاً .

وهنا لا يسعنا الّا السؤال : ما هي ميزة هذا الفنّ ؟ انه تقليد للفن المصري دون شك ! ولكن ما ابعدنا عن فنّ ما رأيناه قبلاً من العقود والحلي والذي لم يكن سوى نسخ لفنّ المصريين ! نرى هنا الفن الفنيقي ، وقد تخلّص من التأثير المصري ، فاتجه الى شخصية ستزايد شيئاً فشيئاً حتى تجعله فناً قائماً بنفسه ،

مستقلاً عن غيره كل الاستقلال . وما هو الفنّ ان لم يكن التعبير عن عبقرية الشعب وعن عقليته بما يحيط بها من الظروف العديدة الخاصة بعصر ما ؟ فيمكننا القول اذاً ان بيبلوس ، اثناء العصور التي تخلصت فيها من تأثير مصر تحققت فيها نشوء فنّ خاص استمدّ روحه من عقلية الشعب ووطنيته .

ومظهر آخر من مظاهر العصر المذكور تلك الكتابة المتسلسلة على الناووس وعلى غطائه . فبينا نرى صولجان ملك بيبلوس في القرن الثامن عشر يحمل اسم صاحبه بالحروف الهيروغليفية المصرية ، نرى كتابة هذا الناووس محفورة بالخط الوطني ، بالحروف الفنيقية .

ومهما بالغنا في الوصف فلا ندرك مبلغ ما يستفزّ علماء العاديات من الفرح امام اكتشاف من هذا النوع . ان اقدم اثر بالحروف الابجدية الفنيقية كنا نعرفه ، قبل هذا الاكتشاف ، لا يرقى الى ما وراء القرن التاسع او العاشر ق . م . اما اليوم فها ان لدينا كتابة من القرن الثالث عشر ق . م . واذاً فهذا أثر ذو اهمية كونية من جهات عديدة ، بل هو اول أثر مكتوب بالحروف الابجدية .

ولم يخطئ الاقدمون اذ نسبوا اكتشاف الابجدية الى الفنيقيين ، فكان ذلك في حكم المقرر عندهم .

كان الفنيقيون يحملون اذ ذاك مفاخر عديدة لما أدوه للانسانية من الخدمات الجلى . فهم الذين قاموا بادوات الوصل بين الشعوب المختلفة ؛ هم الذين كانوا ، اذ ينشرون في انحاء العالم بضائعهم وسلعهم المختلفة ، ينشرون معها اصول المدنية ؛ هم الذين سادوا في قواديهم على البيداء المتاوجة لا يبلون بعواصف البحر المتوسط ، ولا بمجاهل الاوقيانوس البعيد . وها هم الآن يضيفون الى تلك الخدمات افضل ما يمكن للعلم ان يتمناه من المرافق ، واسمى ما يمكن للمدنية ان ترجوه من اسباب الانتشار ، الا وهي الابجدية !

الابجدية ! وما ادراكم ما قدّ الابجدية من الحاجات في ذاك العصر القديم ! كيف يتمكن كبار المفكرين من تبادل افكارهم وايصالها الى الجمهور لولا الابجدية ؟ وما عسى ان تكون طرق التعبير عن الفكر لولا الحروف ؟

أوَ تكفي لذلك تلك الصور الهيروغليفية التي كانت قراءتها وحدها علماً قائماً برأسه؟ وكثيراً ما رقمت الرجل من رعاع القوم فاحلّته مكان الوزراء العظام في الصور القديمة. وان معلمي المصريين انفسهم كانوا يجدون صعوبة عظيمة في حلّ الغاز تلك الرسوم الهيروغليفية وتفسير اعاجيبها. ولم يكن اسهل من ذلك فهم الصور المسمارية التي لا تزال قراءتها في عصرنا، على ما فيه من التسهيلات، علماً خاصاً بنفسه.

فما صنع الفنيقيون ليحلّوا هذه الصعوبات ويسهّلوا تداول الافكار بين الناس؟ اخذوا بتقسيم الصوت الى مبادئه الاصلية السهلة. فاستبدلوا بالحروف تلك الصور التي كانت تمثل مقاطع تامة او كلمات برمّتها. وهكذا اكتفوا بستة وعشرين حرفاً للتعبير عن جميع المقاطع الصوتية. وهي حروف سهلة الحفظ والتصوير حتى ان الصبي ليصوّرها عن ظهر قلبه بعد ان يتلقى درسه الاول. وقد نجحوا بتقسيمهم الاصوات نجاحاً باهراً حتى اننا لم نكد نزيد شيئاً على الطريقة التي اورثوها البشرية منذ اكثر من ثلاثة آلاف سنة، كما تشهد بذلك الآثار المتتابعة من عهد الكتابة الظاهرة على ناووس أخيرام، الذي يبقى مفخرة الفنيقيين كما انه مفخرة متحفنا الوطني.

ولا ينسبنّ القارئ هذا القول الى ما قد يثيره في اللبناني التعصّب لاجداده الفنيقيين. فها انا اردفه بقول عالم كبير ابعد من ان يرمى بالتعصب، لانه لم يكن لبنانياً ولم يعرف فنيقية. قال جورج بيرو، مدير مدرسة المعلمين العليا في باريس، في كتابه تاريخ الفنّ:

«انه لزمن مهم في تاريخ جنسنا البشري زمن اختراع المطبعة. على ان زمن اختراع الابجدية، لو امكننا معرفته، لكان اوفر اهمية. ان تحليل اللفظة، والسير في هذا التحليل الى عناصرها الاولية كان دون شك عملاً عقلياً ادقّ، واجتهاداً ذهنياً اشدّ مما كلفه سبك الحروف مستقلة وطرحها على الآلة الطابعة.

«على اننا نرى تماثيل غوتنبرغ في كل مكان. من الحق ان الرجل يستحق هذا الاكرام. ولكن كم تكون آثار الرخام والبرونز اكثر استحقاقاً باكرام ذاك السوري الذي اخترع لشعبه آلة عجيبة لم تعرفها المدنيات العظيمة القديمة! وهل

بين جدودنا الاقدمين ، الذين عملوا وجدّوا حتى اوصلونا الى ما نحن عليه اليوم ، من يكون اوفر جدارة من ذاك الذي يحتجب عنا وراء ظلمات التاريخ ، بان نجعل اسمه في رأس لائحة المحسنين للبشرية وابطالها العظام .»

هذا ما كانت عليه حالة فنيقية في عصر رعمسيس الثاني ، اي في القرن الثالث عشر ق. م. فلنرَ ما صارت اليه بعد ذاك:

لنقطع قرناً فنشاهد رعمسيس الحادي عشر يُرسل صفيه اون-امون الى بيبلوس ليأتيه منها بالخشب .

وكان ان الفلسطينيين وشعوب الشواطئ البحرية الذين كان رعمسيس الثالث قد اقامهم في نواحي غزة ، انتشروا في تلك الجهات وتوسعوا في فتوحاتهم نحو الشمال حتى انهم اخرجوا صيدون قبيل هذا العصر ، وكانوا اذ ذاك يحتلون الشاطئ حتى الكرمل ويقطعون الطريق على المارّة فينهبون ويسلبون ويلتجئون الى بلدة دور ، واسمها اليوم طنطوره . ولم يوفّروا في نهبهم موفد الفرعون نفسه بل سلبوه جميع ما معه اثناء مروره قرب دور.

على ان أون-أمون تابع مسيره الى بيبلوس ودخل على ملكها زكربعل ، فطلب منه ، بصفة كونه رسول الفرعون ، ان يجهزه بالاخشاب الى مصر. فسأله الملك عمّا يحمل اليه بدل ذلك . فاخذ أون-أمون بالاكثار من الوعود . ولما لم ينجح قال للملك ان بيبلوس ونواحيها من املاك الاله أمون . فاجاب زكربعل قائلاً: بل انها من املاك الملك اي زكربعل نفسه . ثم اشار بيده فدلّ موفد الفرعون على قبور اسلافه من الموفدين المقبورين في بيبلوس . ففهم أون-أمون اذ ذاك ان سلطة سيده على فنيقية اصبحت أثراً بعد عين...

وفعلاً فان مملكة المصريين كانت في ذاك الوقت في معظم انحطاطها . وكانت مملكة كلدو وممالك الحثيين قد سبقتها في الانحطاط. وكذلك طروادة والمدنية الايجية كانتا قد اضمحلّتا بجملة . وكانت بلاد اليونان في يد البرابرة من الاخائيين . اما مملكة اشور فلم تكن بلغت ازدهارها بعد . وعلى الجملة لم يكن في مجال العمران اذ ذاك سوى فنيقية تسعى السعي الحثيث ، بعد ان تحرّرت واستقلت ، الى احتلال المركز الأسمى بين الممالك الكبيرة.

ولم تلبث ان نشرت نفوذها في المسكونة ، وزادت عدد مستعمراتها من بعيدة وقريبة ، وملأت موانيها بالخيرات والكنوز . فاتجهت الى الفنيقيين انظار العالم .

وكان العبرانيون قد دخلوا ارض كنعان ، واراد سليمان الحكيم بناء الهيكل العظيم ، فطلب معونة حيرام ملك صور ، عارضاً عليه ، لقاء ما يُرسله من خشب الارز ، عشرين قرية من بلاد الجليل . على ان حيرام لم يربح في تلك الصفقة لانه عندما زار العشرين القرية تحقّق فقرها وقلّة خيرها فكتب الى سليمان : « يا اخي ان هذه البلاد كَبُول ! » اي كلا شيء . وتقول لنا التوراة ان هذا اللقب ظلّ عالقاً بتلك البلاد منذ ذاك الحين .

ولم يمضِ نحو القرن على ذلك حتى أسس الفنيقيون اوتيكة وقرطاجة . واخذت سفنهم بالرحلات البعيدة ، فداروا حول رأس الرجاء الصالح ، عشرين قرناً قبل ڤاسكو دي غاما . وسوف لا يحدث من ثمّ معركة بحرية خطيرة الّا وترى الفنيقيين في مقدّمة الظافرين بها ، حتى اخضعوا الامواج ونالوا سيادة البحار في العصر القديم .

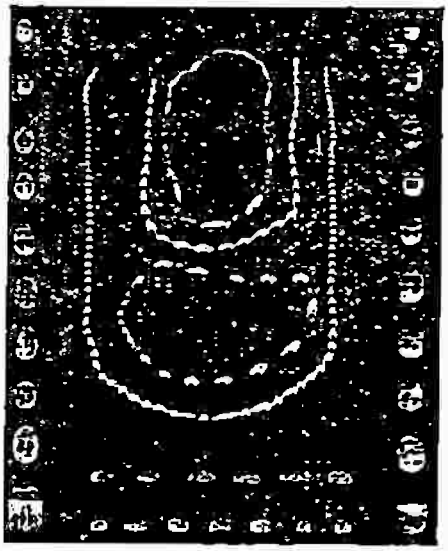

عقود وجواهر استخرجت اثناء حفريات بيبلوس (متحف بيروت)